صوت أوربا المجهول :

المنصف

لوزير وكيع المصري المتوفى سنة ٣٩٣ هـ

للأستاذ السيد أحمد صقر

كان أبو الطيب المتنبي (٣٥٤ هـ) يرسل قصائده الفرائد تتسرى في أرجاء العالم العربي مسرى الأضواء، حاملة بين أطوائها بذور نقدها، فتملأ الدنيا بدويها، وتشغل الناس بحديثها، فمنهم من يكبرها ويغلو في إعظامها والإعجاب بها، حتى يملك عليه الإعجاب أقطار نفسه، ويأخذ بمجامع حسه؛ ومنهم من يحقرها، ويغض من شأنها، ويسرف في ثلبها، حتى ليكاد يخرجها من حلبة الشعر، ويسل صاحبها من بين الشعراء؛ وبين أولئك وهؤلاء أقوام قد تفاوتت حظوظهم من المودة والبغضاء، والإعجاب والإزراء، فيكثرون من الحديث عنها والجدل فيها كما قال المتنبي :

يدع المعرفة إلى الفكرة، وآنا يستخدم أداة من أدوات الطلب مكان أخرى، أو يأتي برخرفة في مكانها. وقد وصل علماء البلاغة إلى إدراك كثير من هذه الأسرار، فعقدوا علما يتحدث عن خصائص الجملة، ودعوه علم المعاني، وعلما للخيال الذي يعقد الصلة بين الأشياء ودعوه علم البيان، وآخر لبعض ألوان الجمال ودعوه علم البديع.

ولكن خصائص النظم لا تقف عند حد الجملة بل إن للأساليب خصائص، فمنها ما يناسب الانفعال السريع والحركة المتوثبة، ومنها ما يناسب العاطفة الهادئة والحركة البطيئة، وقد يدفع الإحساس الفني الأديب إلى انسجام في النظم وموسيقى لفظية، تساعد على الإيحاء، وإن هذا الانسجام وهذه الموسيقى يصلان إلى القمة في فن الشعر، وبذلك يستطيع الأديب أن يصل إلى أسمى درجات التأثير.

محمد أحمد برنس
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

أم ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

ولعل أهم مسألة شغلت النقاد، واستأثرت بنشاط أفكارهم مسألة سرقات المتنبي، فقد كان الرجل واسع الثقافة، دائب الاطلاع على أشعار الشعراء، يجيل النظر فيها، ويعمل العقل، ويدير الفكر بنفس مشوقة وحس جميع، فكان إذا جاشت نفسه بالقريض ربما ألم بهذا المعنى أو ذاك، وطاف بهذه الفكرة أو تلك شاعراً بما صنع أو غير شاعر، وقد اهتبل النقاد مسألة السرقات هذه، وحاول بعضهم أن يصدم بها المتنبي في مجالس الإنشاد، واتخذها الحساد غرضاً يصوبون إليه سهامهم المسمومة لعلهم ينالون من عظمته، ويديلون من ذكره، فيشفوا بذلك نفوسهم، ويذهبوا غيظ قلوبهم. وكان أول من عرض لها وكتب فيها الصاحب ابن عباد وأبو علي الحاتمي (٣٨٨). ولما ألف الجرجاني (٣٩٢ هـ) كتاب «الوساطة» أدار الحديث فيه عن هذه السرقات، وأفاض حتى أنفق فيها أكثر صحائف الكتاب. وجاء معاصره ابن وكيع المصري فألف كتاب «المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي» وابن وكيع هذا «شاعر بارع، وعالم جامع، قد برع على أهل زمانه، فلم يتقدمه أحد في أوانه، وله كل بديعة تسحر الأوهام، وتستعبد الأفهام» وله ديوان شعر جيد[1] ولد في مدينة تنيس بالقرب من دمياط، ومات بها في جمادى الأولى سنة ٣٩٣، وقد شاع ديوان شعره، ولم يبق من كتاب المنصف إلا نسخة واحدة فيما يقول بروكلمان، محفوظة في مكتبة برلين برقم ٧٥٧٧، وهي تقع في ١٦٧ لوحة، وفي كل لوحة صفحتان، يستغرق الجزء الأول منها ١٤٨ لوحة، واللوحات الباقية من الجزء الثاني ... وهو كتاب نفيس حقاً أشمه في ثقة وأمن في طليعة كتب النقد الأدبي، وأعد مؤلفه في مقدمة الطبقة الأولى من أعلام النقد، لا في القرن الرابع وحده بل في كل العصور. ولنفاسة هذا الكتاب وطرافته، لا أريد أن أحدثك عن فكرته وأسلوبه ومنهجه، بل أذر مؤلفه يحدثك من ذلك كله لتتبين بنفسك أغراضه ومقاصده، وتتعرف بذوقك رأيه وتفكيره، ولئن كان الكتاب يعرف من عنوانه كما يقال فإنه أيضاً يفهم من مقدمته.

(١) يتيمة الدهر ١/٢١٧.

قال ابن وكيع : « أما بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم ، وعلى آله الأصفين الأخيار الطيبين الأبرار ، فإنه وصل إليّ كتابك الجليل الموضع ، اللطيف الموقع ، تذكر إفراط طائفة من متقدمي عصرنا في مدح أبي الطيب المتنبي وتقديمه ، وتناهيهم في تعظيمه وتفخيمه ، وأنهم قد أفرطوا في ذلك الأوصاف وتجاوزوا الإسراف ، حتى لقد فضلوه على من تقدم عصرُه عصرَه ، وأبَّر على قدره قدرُه . وذكرت أن القوم شغلهم التقليد فيه عن تأمل معانيه ، فما ترى من يجوز عليه جهل الصواب ، في معنى ولا إعراب . وذكرت أنهم لم يكتفوا بذلك حتى نقوا عنه ما لا يسلم لفحول الشعراء من المحدثين والقدماء منه ، فقالوا : ليس له معنى نادر ، ولا مثل سائر ، إلا وهو من نتائج فكره ، وأبو عذره ، وكان لجميع ذلك مبتدعاً ، ولم يكن متبعاً ، ولا كان لشيء من معانيه سارقاً ، بل كان إلى جميعها سابقاً ، فادّعوا له من ذلك ما ادعاه لنفسه على طريق التناهي في مدحها ، لا على وجه الصدق عليها فقال :

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله ... إذا القول قبل القائلين مقول

وهذا تناه ومجانفة منه كاذبة ، وقد يأتي الشاعر بضد الحقائق ، ويتناهى في الوصف وهو غير صادق . وذكرت أنك عارضت دعواهم بأبيات ، وجدتها في شعره مسروقات ، فادعوا فيها اتفاق الخواطر ، ومواردة شاعر لشاعر . واحتجوا عليك بامرئ القيس في قوله :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجمل

فوافق خاطره خاطر طرفة في قوله :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وأحببت إنهاء ما عندي إليك ، غير متحيف لك ولا عليك ، فأقول والله الموفق للصواب :

إن القوم لم ينصفوا من أبي الطيب إلا فاضلا ، ولم يشهروا بالتقريظ منه خاملا ، بل فضلوا شاعراً مجيداً ، وبليغاً سديداً ، ليس شعره بالصعب المتكلف ، ولا اللين المستضعف ، بل هو بين الرقة والجزالة ، وفوق التقصير ودون الإطالة ؛ كثير الفصول ، قليل الفضول . لكنه بعد هذا لا يستحق التقديم على من هو أقدم منه عصراً ، وأحسن شعراً ، كأبي تمام والبحتري وأشباههما ، فإني لا أزال أرى من مستحلي الآداب من يعارض شعرهما بشعره ، ويزن قديمهما بقدره ، من غير انتقاء للشعر استعمل فيه كد فكره ، ولا استقصاء نظره ، وإنما تلك الخطوة الرائعة ، والشهرة الذائعة ، والنفوس مولعة بالاستبدال والنقل ، لهجة بالاستطراف واللل ، ولكل جديد لذة ، فلما كان شعره أجدّ فيهم عهداً ، كانوا له أشد ودّاً . وهنا أغضينا لهم عن تفضيلهم إياه على من لا يشق غباره ، ولا يمشر مقداره ، مع علمنا في ذلك أن مذهبهم أوضح فساداً من أن نطلب لهم المعارضة ، أو نتكلف من أجلهم المناقضة ، فكيف بالإغضاء عن نفيهم عنه ما لا يسلم منه بدوي أو حضري ، جاهلي أو إسلامي ، من استعارة الألفاظ النادرة ، أو الأمثال السائرة . وإذا كانت مستعملة في أشعار جميع الناظمين من القدماء والمحدثين . وسلمنا لهم نفيهم عن أبي الطيب ذلك كنا قد سلمنا لهم أنه أفضل أهل الشعر في كل أوان وعصر . وهذه دعوى لا بد من كشف أسرارها وإظهارها ، وهي بالعناية أولى من الأولى ، لأن تلك دعوى خصت طائفة ، وهذه تعم جميع القائلين من الأولين والآخرين . ولقد ادعى قائلها إفكاً واسعاً ، وظل للحق فيها دافعاً ؛ لأنه ادعى وقوع جميع الشعراء فيما سلم أبو الطيب منه ، وتقرهم إلى ما فاق عنه ، وهذه صفة تتجاوز الصفات ، وتكاد تشبه المعجزات . ولو علم صدقها أبو الطيب من نفسه لجعلها آية له عند تنبيه ، ودلالة على صحة ما ادعاه من نبوته ، يتحدى بها أهل دعوته .

(البقية في العدد القادم) السيد أحمد صقر

إعلان

تقبل العطاءات بمكتب حضرة مدير إدارة المباني والموازم لغاية ظهر يوم ١٩ مايو سنة ١٩٤٩ عن توريد ملبوسات لبوليس القصور الملكية .

ويمكن الحصول على الشروط من إدارة أسلحة وسمات البوليس مقابل مبلغ ١٥٠ مليم يضاف إليه ٣٠ مليما أجرة البريد — وتقدم الطلبات على ورقة دمغة من فئة الثلاثين مليما . ١٦٥٧